الاستحالة السرية،
واسترداد الوعي السرائري المستيكي

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٤

www.coptology.org

الاستحالة السرية،

واسترداد الوعي السرائري المستيكي

رسالة الأخ ديفيد –تعليقاً على مقالنا عن الاستحالة السرية والاستحالة الجوهرية– تبعث شجوناً قديمة في القلب. نحن لا ننكر أن للحواس الخمس دوراً أساسياً معرفياً في حياتنا الإنسانية. كان أستاذنا الدكتور وهيب عطاالله يردد دائماً بأن نقطة البدء ليست دائماً فلسفية. ونقطة البدء هي بقاء شكل وطعم الخبز والخمر بعد التقديس، وهذه حقيقة تدركها الحواس بالنظر والذوق معاً. لعل الجيل المعاصر لنا لم يدرك التسليم الكنسي والليتورجي؛ لأن إقامة هذا العدد الكبير من الأساقفة والقساوسة دون تسليم من شيوخ الكنيسة لا يقل ما قضوه في الرهبنة عن ٥٠ سنة، كان هو السبب المباشر في ضعف الحياة الليتورجية.

إذا عدنا إلى التسليم الليتورجي نفسه –كما ورد في صلوات القسمة– نجد أن صلاة قسمة القداس الغريغوري تسلِّمنا الحقيقة الكنسية التالية:

> "مباركٌ أنت أيها المسيح ضابط الكل مخلص الكنيسة. أيها الكلمة الناطق والإنسان المنظور. الذي من قبل تجسدك غير المدرَك أعددت لنا خبزاً سمائياً جسدك المقدس، هذا السري ⲙⲩⲥⲧⲏⲣⲓⲟⲛ ⲟⲛ والمقدس في كل شيء (دائماً). ومزجت لنا كأساً من كرمةٍ حقيقيةٍ التي هي جنبك الإلهي غير الدنس. هذا الذي بعد أن أسلمت الروح، فاض لنا منه دمٌ وماء، هذان الصائران طهراً لكل العالم".

وفي ذات التسليم تقول صلاة قسمة يا حمل الله:

"من كأس دمك نشرب. أعطنا مذاقة روحية لنذوق أسرارك المحيية (لنستطعم مذاقة أسرارك الروحية)؛ لكي بذوق جسد (لحمك) نؤهَّل لذوق نعمتك. وبشرب دمك نؤهَّل لحلاوة محبتك. وهبت لنا أن نأكل لحمك علانيةً. أهِّلنا للاتحاد بك خفيةً ... وهبت لنا أن نشرب من كأس دمك ظاهراً. أهِّلنا أن نمتزج بطهارتك سراً ...".

خلف هذه الصلوات، ربما اختفى عن إدراك القارئ المعاصر لنا أن هناك قصة قديمة عن "انفتاح العيون". حدثت أولاً بعد الأكل من شجرة معرفة الخير والشر، إذ يذكر سفر التكوين: "انفتحت أعينهما وعرفا أنهما عريانان" (تك ٣: ٧)، وكان هذا هو أحد جوانب المعرفة التي اختلط فيها الخير والشر، وانفتح إدراك آدم وحواء معه إلى حقيقة الوجود بدون شركة. لكن بقية القصة –ولها بقية هامة– هي في لقاء رب الحياة بعد القيامة مع تلميذي عمواس، إذ يذكر القديس لوقا أن الرب "اتكأ معهما. أخذ خبزاً وبارك وكسر وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما" (لو ٢٤: ٣٠ – ٣١). فقد لمست قوة الحياة التي للمخلص إدراك التلميذين، وانفتح الإدراك، ولاحظ عزيزي القارئ قوة التعبير، إذ أن انفتاح العيون جاء بعد الكسر والتناول.

إذا عدنا إلى الصلوات الليتورجية في قداسي غريغوريوس وكيرلس، وجدنا إشارة ذات دلالة عن "المذاق"، وبالتحديد التناول، هي:

* ذوق النعمة

* حلاوة محبة الرب

* الاتحاد الخفي أو السري

* الامتزاج بطهارة الرب، أو بالحري، قداسته سراً

فما يحدث للحواس بعد المعمودية، هو ذلك الانفتاح الذي يناله الكيان

الإنساني في سر مسحة الميرون الإلهي، وهو رشم العينين والفم والأنف واليدين، وقبل ذلك رشم الرأس. فختم أو رشم الحواس هو بداية تقديس الحواس لكي تنال بقوة وعمل الروح القدس، الارتفاع إلى معرفةٍ أعظم بكثير من المعرفة التي تأتي عن طريق الحواس. وعندما يسخر أحد الأخوة الإنجيليين من رشومات الميرون، ويدَّعي أنه يأخذ الروح القدس مباشرةً من الله، فنحن لا ننكر أن الله هو الواهب والعاطي بشكل مباشر، ولكن الذي غاب عن الوعي هو أن العطية هي لتقديس الحواس الجسدانية؛ لأن الروح القدس يعمل في القلب وفي كل أعضاء الجسد، وإلَّا ما معنى عبارة رسول المسيح بولس بأن الجسد هو هيكل الروح القدس الساكن فينا؟ (راجع ١ كور ٦: ١٩).

عمل الروح القدس في انفتاح العينين

سبق تلك العطية إرهاصات كثيرة في معجزات الرب، وهي شفاء المولود أعمى (يو ٩: ٦ وما بعده)، وفي خدمة التلاميذ قبل صعود الرب "ارفعوا عيونكم" لكي تروا الحصاد في الحقول (يو ٤: ٣٥)، ورد البصر إلى شاول، بل حتى في إقامة طابيثا، إذ فتحت عينيها (أع ٩: ٤٠). والعيون التي لا ترى عمل الله (رو ١١: ٨) هي عيونٌ فَقَدَ صاحبها الإدراك (رو ١١: ١٠). لكن استنارة الإنسان يطلبها رسول الرب إلى كنيسة أفسس "لكي يعطيكم إله ربنا يسوع المسيح أبو المجد روح الحكمة والإعلان في معرفته، مستنيرةً عيون أذهانكم لتعلموا ما هو رجاء دعوته وما هو غنى مجد ميراثه في القديسين وما هي عظمة قدرته الفائقة نحونا نحن المؤمنين حسب عمل شدة قوته الذي عمله في المسيح إذ أقامه من الأموات وأجلسه عن يمينه في السماويات ..." (أف ١١: ١٧ – ٢٠). فالنور الإلهي يشرق بمعرفةٍ جديدةٍ جداً "لأن الله الذي قال أن يُشرق نورٌ من ظلمةٍ هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح" (٢كور ٤: ٦).

والسؤال الهام، هو ما هي علاقة رؤية العينين بالقلب؟

انشطار المعرفة في الإنسان يعود أصلاً إلى الخلقة الساقطة، ولكن فداء وتقديس الإدراك هو أحد مكونات الخلقة الجديدة، ولذلك، لا بُد وأن يشرق "نور معرفة مجد الله في وجه يسوع المسيح". هذا الإشراق يحول الرؤيا المنظورة إلى إدراك ما هو غير منظور. ولكي نترك العموميات التي أفسدت الحياة الروحية في التعليم يجب أن نقدم مراحل تدرج المعرفة الإنسانية غير المنقسمة:

* الوجه العابس الغاضب هو ملامح منظورة، ولكن ما هو خفيٌّ في القلب والعقل، يدركه الإنسان دون شرح وبلا حاجة إلى تجاوز المنظور؛ لأن ما هو منظور معروفٌ بدلالته العقلية أو القلبية.

* الجمال لا يحتاج إلى برهان يثبت وجود؛ لأنه ظاهر، ومع أننا قد نختلف على أشكال الجمال وأنواعه، إلَّا أن إنكاره مستحيل تماماً لأن فيه "مسحة سرية تُعيد إلينا نسمات الفردوس"، فهو، أي الجمال يقود الإنسان إلى ما هو غير منظور مثل الإعجاب والفرح، وقد يقود أيضاً إلى تحريك الغرائز، ولكن هذه ليست مسئولية الجمال، بل ما اختزنه القلب والذاكرة من ذكريات وخبرات قديمة تختلف من إنسان إلى آخر.

* ما هو منظور ليس فقط منظور، بل يحمل دلالات داخلية تدركها الحواس أولاً ويفهمها العقل مثل إشارات المرور في الشوارع أو رموز الأندية ...إلخ

إن ما حدث مع تلميذي عمواس له خلفية، وهي أن كلاهما عرفا الرب من كسر الخبز والتناول من الخبز؛ لأن يسوع الحي كسر الخبز، وهناك ملامح غابت من السرد نفسه، ولكنها معروفة، فقد رأى التلميذان جروح اليدين وسمعا كلمات الشكر التي تسبق كسر الخبز، وهي الممارسة اليهودية القديمة السابقة على ميلاد رب المجد يسوع، ولكن الأهم هو ما يسجله لوقا بأن القلب كان "ملتهباً"، فقد اشتعل بنور ونار الروح القدس، فأدرك كلاهما أن ذلك الشخص الذي "أُمسكت أعينهما عن معرفته" هو الرب يسوع نفسه. وإمساك العينين هنا هو تعبير عن انغلاق الحيرة وعدم

اليقين، إذ أن كلاهما لم يصدِّقا بشارة النساء بالقيامة، وكان الموت المرعب على الصليب لرجلٍ كان هو محط الرجاء بأنه جاء لكي "يفدي إسرائيل" من حكم الرومان، ولكنه مات و لم تقم الثورة المسلحة التي كان كلاهما يتوقعانها. هذا هو "انغلاق العينين"، الفكر الذاتي الذي حدد خدمة المسيح بشكل سياسي مثل داود وشمشون والقضاة السابقين، ولذلك عندما لم تتم هذه الخدمة بالشكل المطلوب، فَقَدَ الإدراك رؤية الرب الذي تظاهر بأنه ذاهبٌ إلى قريةٍ أبعد، ولكن حلول مساء اليوم ألزمهما بتقديم واجب الضيافة لأن هذا الواجب هو واجب ديني وأخلاقي كان يلتزم به أي يهودي في زمان الرب يسوع. على أن انفتاح العيون، سبقه التعليم من موسى والمزامير والأنبياء. هنا نجد أصول الليتورجية في شكلها البدائي القديم: التعليم، ثم السر الكنسي، أي قداس الموعوظين ثم قداس المؤمنين؛ لأن ذلك لم ينشأ من فراغ، بل من اختبارات الآباء الرسل.

هل غاب من الوعي المعاصر أن يسوع ربنا هو الذي يعطي جسده ودمه؟

أرجو أن تكون إجابة السؤال واضحة جداً، وهي أن التسليم الليتورجي يقول إن يسوع المسيح هو الكاهن الوحيد والأوحد الذي منه تنال الكنيسة هذه الخدمة، هو الذي يشكر ويبارك ويقدس ويقسِّم ويعطي، وقد سجَّل لنا القداس الغريغوري بشكل أوضح هذه الحقيقية.

إذا عدنا إلى الحواس الخمس، وأدركنا أن لدينا "حِسَّاً" روحياً، ربما يمكن وصفه بالحاسة السادسة، كان أستاذنا د. وهيب عطاالله يسميه بـ "الحدس، أو *Intuition*"، هو أحد جوانب الاستنارة الروحية.

و"الحدس" هو إدراكٌ فوري لا دخل للحواس الخمس فيه، وكلنا لديه هذا "الحدس" عندما يشرق نور معرفة أشياء كثيرة كانت غامضة، وأمور رأيناها و لم

نفهمها في وقتها مثل استنارة القلب في فهم كلمات الوحي، قال عنها الأب متى المسكين إن فهم أقوال الرسل فهماً صحيحاً يجعلنا في ذات مستوى معرفة الآباء الرسل؛ لأن الروح القدس هو نفسه الذي يعمل في كل أعضاء الجسد الواحد، جسد المسيح الكنيسة.

حسب التسليم الليتورجي، يقدم لنا رب المجد جسده ودمه، وحسب الخبرة الإنسانية العادية، كل طعام نأكله مع صديق أو حبيب ينال بُعداً شخصياً. وعندما يقدم لنا شخصٌ له مكانة كبيرة في قلوبنا، ولو قطعة خبز أو ملعقة سكر، فإننا نأخذها بورعٍ ومحبة، وأحيانا بخشيةٍ مقدسة؛ لأن مع التقديم، تُستعلَن المحبة والألفة والشركة، ولا تبحث الحواس في حجم أو حتى طعم ما يقدَّم لنا لأن المحبة والشركة تطغى على ما هو تحت الحواس الخمس، إذ ندرك بـ "الحدس"، تلك الإلفة والرقة والحنان التي تملأ القلب.

من هذا الواقع الحي الإنساني، ندرك لماذا تحرص صلاة استدعاء الروح القدس على أن تحتوي على هذه الطلبات:

"نسجد لك بمسرة صلاحك. ليحل روحك القدوس علينا،

وعلى هذه القرابين

ويطهرها

وينقلها

ويظهرها

قدساً ⲉⲧⲟⲩⲁⲃ

لقديسيك".

قبل حلول الروح القدس على القرابين، يحل على المؤمنين. والتطهير هنا هو ما تشرحه الكلمات التالية، هو النقل من الخلقة الأولى القديمة، وهو ما سبق الآباء مثل كيرلس الأورشليمي، وغيره (راجع المقالة السابقة)، وأكدوا عليه بأن الخبز لم يعد خبزاً بسيطاً أو عادياً مثل أي خبز، ولكن الأهم هو الاستعلان، الذي تعبِّر عنه الصلاة بكلمة "يُظهرها"، والكلمات التالية موجزة وكثيفة جداً، فالقرابين هي قدسٌ للقديسين؛ لأنها قوة وعمل روح التقديس، أي قداسة الروح القدس الواحدة التي لا تنقسم، وإنما يتعدد عملها، فلا انقسام في الروح؛ لأنه الروح الواحد (١كور ١٢ كله)، رغم تعدد الأعمال وتوزيع العطايا والمواهب. فذلك التقديس الذي أُعطي لنا، والذي نالته العيون في أختام الميرون وسائر أعضاء الجسد يتفاعل بشكل سري يدركه كل واحد منا حسب محبته وحسب احتماله ونموه.

الرؤيا السرائرية

الإيمان هو دعوة لأن نحيا ليس حسب المعارف الحسية، ولذلك كانت نقطة البداية التي حذرنا منها في السطور الأولى من هذه الدراسة المختصرة، هي تلك المتعلقة بتحكم الحواس كالنظر والذوق في الإدراك. على أن الإدراك و"الحس" الروحي لا يرفض الحواس مطلقاً، وهذا واضح في الأمور اليومية مثل القراءة أو الكتابة أو قيادة السيارات التي تحتاج إلى جانب الحواس، إلى تقدير عقلي للمسافة والسرعة واكتشاف مقاصد السائقين. كما أننا اعتدنا عندما نقرأ، ألَّا نقف عند الحروف والكلمات، بل تتحول تلك الحروف والكلمات إلى معاني.

كتب مقاتلو "داعش" على منازل المسيحيين في المناطق التي سيطروا عليها في العراق حرف الـ "نون"، فصارت الـ "ن" تعني نصراني، وصار الحرف دالاً على العداء.

ولذلك يجب أن نستعيد الجانب المستيكي للتناول؛ لأننا "نتغذى باللوغوس

الذي يعطي جسده الحقيقي"، وقد غابت فكرة "طعام الخلود"، رغم وجودها في الألحان القديمة التي لازال بعضها يُرتَّل -ليس دائماً- بل سجَّل بعضها خولاجي القمص عبد المسيح المسعودي، وحفظت صلاة الشكر بعد تناول الأسرار المعنى القديم:

"نشكرك يا أبانا القدوس خالق الكل ورازق الجميع الذي أعطانا هذا الطعام المقدس غير المائت السري (لاحظ أن العبارات التالية تسلِّم لنا معنى الفداء)

- الذي فتح لنا طريق الدخول التي للحياة.

- الذي أرانا طريق الصعود إلى السموات" (القداس الغريغوري).

وتضيف صلاة الشكر بعد التناول في القداس الكيرلسي:

"لأنك فيما نحن مطروحون لحكم الموت ومغموسون في حفرة خطايانا

- أنعمت علينا بالحرية

- أعطيتنا من هذا الطعام غير المائت السمائي

- أظهرت لنا جميع هذا السر المخفي".

الأسرار غير المائتة السمائية الإلهية

هذه هي أوصاف الخبز السمائي الذي نأخذه. فنحن لا نأكل طعاماً من ثمار الأرض، بل الطعام الذي "نُقِلَ" ودخل ملكوت السموات وصار طعاماً إلهياً. وإذا كان لدينا الحس الروحي بأن المسيح يسوع الكاهن العظيم هو الذي يوزع علينا جسده ودمه "يا الذي أعطى تلاميذه القديسين في ذلك الزمان أعطنا نحن أيضاً"، فإن الإحساس الروحي الذي يعطيه الروح القدس يجعلنا ندرك أن الرب يعطي ذاته ويقدم لنا حسب عبارة الشهيد أغناطيوس الأنطاكي "طعام الخلود وترياق عدم الموت".

لقد فُصِلت القيامة عن الإفخارستيا، رغم أن الترتيب الليتورجي الذي فيه نستدعي الروح القدس، والذي فيه وبه أيضاً الرب عند المذبح أو المائدة (لا فرق لاهوتي بالمرة بين اللفظين)؛ لأن الرب يقول: "أنا هو خبز الحياة"، وبعدها: "الخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله عن حياة العالم"، بل هو ليس خبزاً عادياً، بل لاحظ دقة إنجيل يوحنا: "أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء. إن اكل أحدٌ من هذا الخبز يحيا إلى الأبد والخبز الذي أنا أُعطي هو جسدي الذي أبذله عن حياة العالم" (يو ٦: ٥١). والخبز الحي لا يختلف عن استعلان يسوع "أنا هو القيامة والحياة" (يو ١١: ٢٦).

نحن نقابل الرب يسوع المسيح الأقنوم الثاني في الليتورجية لكي نشترك في حياته، في قوة قيامته وشركة آلامه: "آمين. آمين. آمين. بموتك يا رب نبشر وبقيامتك المقدسة وصعودك إلى السموات نعترف". يسبق هذا الاعتراف، استدعاء الروح القدس؛ لأننا دخلنا مجال الشركة الإلهية التي لا تقوم على إدراك حسي من الحواس، بل إدراك حسي من الاستنارة.

طبعاً، لا يمكن للحواس النابعة والتي تعمل للخلق الأول الذي لازالت قوته وعمله، أن تفهم وتستوعب السر حسب إدراك النظر والذوق، ولكن خلف النظر يوجد الحضور الإلهي لعمانوئيل خادم وموزع الأسرار. وخلف حاسة الذوق نجد العطش إلى محبة الرب التي تجعلنا نذوق السرائر كطعام خلود "يُعطى عنا خلاصاً وغفراناً للخطايا وحياةً أبدية لمن يتناول منه".

لماذا نرفض الاستحالة الجوهرية؟

يبدو أن المقالة الأولى لم تكن واضحة بدرجة كافية، ولكن بعد تقديم التسليم الكنسي الذي حفظته الليتورجية، فإن التعبير "تحت أعراض الخبز والخمر" معناه الحقيقي هو خضوع السر الإلهي الفائق للحواس الخمس، وبالتالي نسيان حتى الحاسة

السادسة أو الحدس. وخضوع السر لهذا التعريف *Definition* المتأخر جداً هو تنـــازل كبير عن تراثنا المستيكي؛ لأن:

- طعام الخلود
- الأسرار غير المائتة
- واهبة الحياة الأبدية
- غفران الخطايا
- ميراث الملكوت

وعندما يقول القداس الغريغوري: "الذي أرانا طريق الصعود إلى السموات"، فإننا مع رسول الرب: "أجلسنا معه في السماويات" (أف ٢: ٦)، عند ذلك يجب أن نتمسك بما هو سمائي، حيث لا جوهر ولا عَرَض، وحيث تستنير الحواس وترتفـــع إلى ما هو سمائي في المسيح، وليس بمحاولة قتل الحواس، بل بتجلي الحواس بنور الـــرب؛ لأن استنارة العين تفتح الإدراك لترى "الخلقة الجديدة" التي لا زمن فيها ولا مســـافات ولا موت، بل الحياة الأبدية التي أعطاها لنا الآب في ابنه يسوع المسيح، حيـــاة غـــير مخلوقة؛ لأن "النعمة غير مخلوقة"، ولأن الرب أخذ الجسد المخلوق وجعله "جسد مجده" (فيلبي ٣: ٢١). ولأن تحوُّلنا يبدأ هنا، ودخولنا الرؤية المستيكية *Mystical* بـــالروح القدس لا يقمع الحواس، بل يسمو بها إلى ما هو أعلى "إن كنتم قد قمتم مع المســـيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما علـــى الأرض" (كو ٣: ١ – ٢). وما وقعت فيه الكتب الغربية من مأزق عقلي تحـــاول تجـــاوزه في كتابات كاثوليكية لعلماء كبار مثل الأب كبريانو *Vagaggini* في أعظم مجلد ظهـــر حتى الآن *Theological Dimension of the Liturgy* في ٩٩٦ صفحة هو بلا شـــك عمل عظيم فاق كل ما كتبه علماء الكنيسة الأرثوذكسية في زماننا.

هل تريد أن تدخل الخلقة الجديدة؟

نعم. كيف؟

اخلع آدم القديم عبد الحواس، وألبس الإنسان الجديد لأن يسوع رب الحيـــاة في انتظارك يحاول معك بالرفق وبالنور الإلهي أن يرفع الإدراك إلى ما هو سمائي فائق.

دكتور

جورج حبيب بباوي